فصل من حكاية جلول الجيلالـــي
(المعروف خطأ بجاليلو جاليلي)

مصطفى المسناوي

ـ 1 ـ

جاءتني الرسالة مع الفجر . كنت بصدد الخروج لاحضار الخبز والنعناع حين وجدتها تحت الباب . حملتها الى عيني فميزت الختم الرسمي والخطوط السوداء الملتوية . لم أخبر الشعور الذي كنت أنتظره فقلت لعله الصباح أو لعل التوقع طال أكثر مما ينبغي وقلت أشياء عديدة أخرى لم تكن واضحة في ذهني بما فيه الكفاية وخطوت عائدا الى الغرفة . سألتني :أهي الرسالة ؟ قلت : نعم . قالت : ومتى ستذهب ؟ قلت : الآن . وشرعت في ارتداء الجوارب فأخرجت نصفها الاعلى السليم من تحت الغطاء وقالت : ستأخذ القطار ؟ قلت : نعم ، القطار . صمتت لحظة سمعت فيها بجلاء دقات قلبهـا وحركـة شفتها العليا وأشفار عينيها ، وتماما ، مثلما كنت أتوقع طيلة الايام الستـة الماضية ، سمعتها تقول : الا زالت المحطة في مكانها القديم ؟ ومثلما توقعت أيضا ، تجمدت يداي على الحذاء ورفعت وجهي اليها فأحسست بكرة الاسمنت تتدحرج داخل قفصي الصدري من أعلى الرئة اليمنى الى الحالب . ووجدتني أجيب متوانئا، وعيناي تتحولان عن عينيها الى الحذاء : نعم، لا زالت هناك .

ـ 2 ـ

« وتسألون عن الذبح متى وأيان يبدأ . ضعوا اليد على الصدر وقولوا هنا . ضعوا العين على العين واسألوني أخبركم بالارض النابتة وبالقلب المقطوع من شجرة عبثـا أبحـث تبحثون معي عن جذورها فذرات الرمل الدقيقة الصفراء الحارة تسافر من مكان الى مكان مغطية البحار والوديان والجبـال

والجثث الحية التي تتحول فيما بعد الى فوسفات وبترول يصدر الى الخارج موادا أولية تصنع وتعود اليكم باضعاف أثمانها مع الاسلحة الخفيفة الثقيلة والمحطات الالكترونية التي تتصل بالاقمار الصناعية الدائرة فوق رؤوسنا حارسة ايانا كما نحرسنا الملائكة حين ننام . لتحرسكم الملائكة يا أبنائي الاعزاء لتحرسكم الملائكة يا أعزائي الابناء لتحرسكم الملائكة لتحرسكم الملاء لتحرسكم الملا .. »

— 3 —

لم امتط القطار . للقطر أوقات ثابتة على المسافر احترامها . لست مسافرا ولا وقت ثابت لي ، لذلك سرت نحو سيارات الاجرة . هتف بي المنادي : العاصمة ؟ قلت : العاصمة . قال : اصعد الى هذه السيارة ، انت آخر راكب . كان بالسيارة ركاب خمسة : أجنبي أشقر ، وشخص أنيق المظهر بالمقعد الامامي ، وأعرابي وبنت وشاب بالمقعد الخلفي . فتحت الباب الايمن لاصعد فنزلت البنت وقالت : تفضل . لم أفهم فابتسمت بسمة متكلفة وقالت : أنا مصابة بضيق التنفس ، وطبيبي نصحني بالجلوس قرب مجاري الهواء . أعجبتني الياء الاخيرة بكلمة طبيبي فكدت أضحك أو أصرخ ، وأحببت اخبارها بأني أنا أيضا مصاب بأمراض عديدة ومتنوعة ، على رأسها أنني أحب رؤية الاشياء وهي تفر الى الخلف هاربة من عجلات السيارات . لكن ملامحها أفهمتني أن مجاري الهواء بالنسبة لها مسألة حياة او موت ، فتخليت عن كل ما تعلمته في صباي وفترة وجيزة من شبابي وانحشرت بينها وبين الاعرابي والشاب قائلا : السلام عليكم .

— 4 —

« من قرية جبلالة وسط الاخماس العليا جاء . قالوا كان ضعيف السمع والبصر وقالوا كان كسيحا وقالوا اختلى بنفسه حينا وقالوا لم يقرأ بالمسيد قط وقالوا وقالوا ولم يعرف الحقيقة أحد . وصرخ هو وسط الجموع أن ابحثوا عن أرض أخرى وعن سماوات أخر اما هذه الارض فثابتة . ووضع رأسه بين كفيه ، وضع وجنتيه وخديه بين كفيه وبكى بالدمع وقال لو أني الآن طفل يلثغ بالكلمات ولو أن الوهم القديم بالقلب لا يزال ... »

- 5 -

جمع المنادي منا أوراقا ستة ملونة وانطلقت السيارة . ركب السائق وعد الاوراق وناول قطعا معدنية للمنادي وانطلقت السيارة تعبر شوارع المدينة. استرخيت ولم أفتح عيني . لم افتح عيني والا لرأيت البنات يمشين بالارصفة على يمين الشوارع وينظرن الى الخلف بملء أعينهن الى السيارات العديدة المتمهلة التي لا يمتطيها غير سواقيها ، لم افتح عيني والا لرايت العمارات الضخمة طور التشييد ، ولا لرأيت الفنادق والمكاتب والابناك وشركات الطيران ودور العرض ومحلات شيء الدجاج . لم أفتح عيني وقلت . أنا سهم يندفع الآن نحو نقطة الانغراز ، ولا أمل في التوقف أو في عودة محتملة.

- 6 -

« قالوا اذهب الى فاس . مركز العلم واشعاع الثقافة . حيث العلماء بعدد الحصى وحبات الرمل . حيث تحت كل حجر فقيه وفي كل استدارة درب محدث . أما هنا فلن يفهمك أحد . تفتح فمك وتخرج منه الكلمات صوب الآذان فتهتز المطارق وتضرب على السنادين لكنها لا تمس القلب ولو ظللت سبعا وسبعين سنة تتحدث : الكلمات حين تظل في الهواء ، تموت » .

- 7 -

فتحت عيني فسألني الاعرابي : هل اقتربت الغابات ؟ نظرت الى الطريق الطويلة الممتدة أمامي ولم أعرف بماذا أجيبه . فقالت الفتاة : بعض الشيء ، فتلك قمم الجبال تبدو من بعيد . قال : أريد أن أرى السباع . نظرت اليه فقال : منذ عشرين سنة زرت العاصمة ومررت بهذه الطريق نفسها . لقد نسيت كل شيء شاهدته ورأيته سوى السباع . قلت : أنا هذه أول مرة أذهب فيها الى العاصمة ، ولم اسمع بالسباع قط . قال : نعم ، فلعلك لم تولد بعد حينها . فتحت فمي لاقول شيئا ، لكن ضحكة صاخبة صدرت من المقعد الامامي أصمتتني . نظرت الى الشخص الانيق فرأيته يهز رأسه بقوة مؤمنا على كلمات قالها الاجنبي الاشقر وناظرا بنصف عين الى الفتاة المحشورة بيني وبين الباب ثم يهتف : وي وي .. ان هذا المشهد الساحر يذكرني بـ « السيزيام » ، خاصة منها الحركة الخامسة . قال الاجنبي : آه .. الالغريتو .، ولكن بلادكم ساحرة حقا ،، لو كان بتهوفن هنا لكتب مائة سمفونية . نظر الاعرابي اليها وسألني : ماذا يقول ذلك الاعرج ؟

قلت : من ؟ قال : النصراني . اتكأت بجذعي نحو المقعد الامامي فرأيت ان رجل الفرنسي اليسرى ملفوفة بالجبس من الاصابع الى حدود الركبة ، قلت : انهما يتكلمان عن الحياة والموسيقى. قال : ولماذا يتحدثان عن «السيزيام» ؟ قلت : لا أعرف . قال لعل أحدا منهما قضى بها ليلة باردة . ونظر اليهما ثانية وقال بصوت خفيض : لكنني أشك في ذلك . لقد قضيت بها ثلاث ليال أنام فوق الاسمنت وأتوسد الخبز الحجري ، ولم أر بها قط نصرانيا ولا أنيقا . قلت : انهما يتحدثان عن « سيزيام » أخرى . قال : آه ، لعلها « سيزيام » النصارى . قلت : بلا شك . وشيئا فشيئا أحسست بالذعر يتجمع في صدري. قلت : هل أصرخ ؟ وأجبت بهدوء : كلا ، ومع اهتزاز السيارة تركت الذعر ينداح الى المناطق القصوى من جسدي ويتسرب مع الانامل والمسام والشعيرات الى الخارج .

ـ 8 ـ

« .. وسار وسط أزقة فاس وهي مملوءة بالجنود الشقر والسود . ثم سار ولم يعد ثمة جندي يظهر على شبكيات العيون ، فقال : الجند الآن لا يرى ، دخل المسام واختفى في المواني، والابناك والواجهات والالبسة والقرارات السرية والمسلسلات التلفزيونية . وقال ان الموت في أن يختفي الشيء والشيء خلف النضد والكؤوس فلا تلمحه الانظار . وفاس لم تعد مدينة وانما هي خنجر يغوص في القلب لا تحس به الا حين تلامس برودة المقبض طراوة الاضلاع . وفاس يا جلول أغنية أمازيغية تصعد أصواتا متوحدة من وديان خضراء شاسعة ينتشر فوقها ، كالكف ، ضباب الصباح ، وتجمع ، كالعبار ، أحزان كل العالم ... »

ـ 9 ـ

ضحك الشاب الجالس معنا في المقعد الخلفي بغتة وقال : ليست هناك أسود البتة . هتف الاعرابي ملتاعا : ماذا قلت ؟ قال : أنا أيضا مررت السنة الماضية بنفس الطريق ، ولم ألمح سوى حيوانات هرمة تاكل الاعشاب . قال الاعرابي : مستحيل ، فقد رأيتها بأم عيني . قال : متى ؟ قال : منذ عشرين سنة . قال : منذ عشرين سنة لم يكن مكان هذه الطريق سوى الحفر والوديان والهضاب . التفت الاعرابي الي ، فقلت : لا داعي للاختلاف ، هذا

سائق السيارة أمامنا نسأله . أخبرنا يا سيدي هل ثمة أسود بالفعل أمامنا ؟ لم يسرع بالاجابة ، بل واصل النظر الى الطريق أمامه ، وانتظر فراغ الاتجاه القادم ليتجاوز شاحنة كانت تسير أمامنا ، ثم قال : أنتم راكبون في السيارة والطريق نحن فيها . اذا كان ثمة أسود فسترونها واذا لم تكن فستلمحون الخيالات والبهائم الهرمة .

ـ 10 ـ

« ـ حسنا يا جلول : هذه الارض ثابتة . فما قولك في الشمس والقمر والزهرة وعطارد والمريخ ؟

ـ كل شيء ساكن ، وأعينكم وحدها هي ما يتحرك في هذا العالم مسجلا حركات الرعايا والسكنات » .

ـ 11 ـ

ساد الصمت فسرحت ببصري في عداد السرعة والساعة والمذياع المصمت والمقود ومحول السرع والزجاج الامامي والطريق الملتوية كالثعبان والارض البنية الخضراء ثم الاشجار والنصب: نصب بيضاء تتعمم بالاحمر وفي منتصف بياضها بقايا اسم وأرقام . فكرت في أبناء الفلاحين ، أولئك الاشقياء الذين لا يجدون مكانا لهم الآن الا خلف البهائم ، وحين يكبرون يكتشفون الحياة التي تقسو يوما بعد يوم فيهاجرون بحثا عن مكان في هوامش المدن أو في مناجم الفحم البعيدة النائية . سألت نفسي : لو كنت مكانهم ماذا كنت ستعمل ؟ لست مكانهم الآن ، ولذلك أستطيع الذهاب في خيالاتي بعيدا : كنت ساحطم النصب كلها بعد أن أمحو منها الارقام والاسماء والالوان : فماذا تعنيني هي والطريق الاسفلتية والسيارات والشاحنات وحتى السماء نفسها تلك المرفوعة من غير عمد ؟ وقال الشاب : ها نحن الآن وسط الغابات ، فاين سباعك ؟ زوى الاعرابي ما بين حاجبيه وحدق في الطريق أمامنا ، الى حيث تلتقي رؤوس الاشجار بالسماء وبالطريق الرمادية ، ثم انفرجت أساريره وهتف : هاه ، ها هو ذا ، انظروا : الاسد . حدقت الى حيث يشير فلم المح سوى نقطة داكنة بعيدة تبدو في وسط الطريق . قلت : أنا لا ارى شيئا . فضحك في جذل وقد أشرقت عيناه : عيونكم أضعفتها الحيطان ، تلك التي تنتصب حواليكم في كل مكان وتفرحون بانتصابها . لذلك فلن تستطيعوا رؤية شيء ابدا . صمتت وواصلت التحديق أمامي . لم أكن قوي البصر بالتاكيد ، ولست أدري أذلك يعود الى الحيطان أم لي أنا نفسي ، ومع ذلك

فقد كنت متيقنا ـ بفضل الابصار وحده ـ من ان النقطة الداكنة التي صارت تقترب شيئا فشيئا لم تكن أسدا ولا قلم حبر ملون ، ولكن شخصا بالتأكيد . يقف وسط الطريق فاردا يديه . وقال الشاب في سخرية : لم تخبرنا بان أسدك آدمي ؟ قلت : ماذا يفعل هذا الابله وسط الطريق ؟ قال الشاب مواصلا سخريته : لعله يطلب اسعافا أو مساعدة ، كلا . انفجر صوت الاعرابي بغتة بصوت مختنق : انه دركي .

ـ 12 ـ

« ـ جلول الجيلالي ، لماذا بنيت مدينة فاس ؟
ـ لاجل أن يبنى بها جامع القرويين .
ـ ثم ماذا ؟
ـ ولاجل أن يطوقها جند « الحماية » سنة 1912 .
ـ ثم ؟
ـ ولاجل أن يكتب عنها الفقيه المغيلي :
يا فاس حيا الله أرضك من ثرى
وسقاك من صوب الغمام المسبل » .

ـ 13 ـ

التفتت الى الاعرابي فرأيته قد انكمش وتضاءل حتى كاد لا يبين وسط جلابيته الدرعية السوداء مثبتا عينيه الجاحظتين في الدركي الذي شرع يلوح لنا بيده معطيا الامر بالوقوف . رفع السائق رجله عن دواسة البنزين ووضعها على فرامل الرجل وشرع في الوقف . قال الفرنسي : ماذا يريد هؤلاء ؟ لم يجبه أحد . أسكت السائق المحرك وجذب مقبض الفرامل اليدوية وفتح الباب ونزل . كانت الطريق خالية . لا سيارات قادمة ولا سيارات ذاهبة . والصمت المطلق يملأ المكان . وفكرت في مربع وزاوية وكأس ماء ، فبدأتني رجفة مباغتة انطلقت من رسغي الايمن وسرت مع ساعدي الى المرفق والعضد ومن هناك أحسست بها تندق كالسيخ في عظم الترقوة . انتفضت فاستيقظت الفتاة التي كانت في نصف اغفاءة وهتفت : وصلنا ؟ دار اليها الانيق نصف دورة وقال ناشرا بسمة خاصة جدا : كلا ، ولكننا سنصل قريبا ان شاء الله ، قطعنا اكثر من نصف الطريق ، ونحن الآن في حاجز لرجال الدرك . سار الدركي مبتعدا عن السيارة ، واضعا كفيه على خصره ، باتجاه زميل له واقف قرب دراجتيهما الناريتين ، فتبعه السائق بخطى متخاذلة ومن جيبه رأيته يخرج

ورقتين ملونتين ويقترب منه ثم يدسهما في يده . ودون أن ينظر الدركي اليه شرع يتكلم ويضحك بصوت مرتفع مع زميله . فأحنى السائق رأسه وداز عائدا نحو السيارة وفتح الباب ثم جلس . كانت حبات العرق تلتمع على جبهته وبعض منها قد حفر أخاديد على صدغيه وقذاله فأخرج منديلا ومرره عليها . لم يقل أحد منا شيئا ، أما هو فتنهد تنهيدة طويلة وشغل المحرك ثم سار .

— 14 —

« ... أما بعد أما بعد . فلأنكم ترتدون ربطات العنق ولأنكم لا تثقون سوى بالكتب فانكم الآن تقولون بالارض الدائرة . أما بعد . فستبقى الارض تدور الى أن تضعوا يمناكم في الجيب الفارغ واليسرى على البطن كتما لقرقرته . تضربون برؤوسكم الحيطان أو تهوى على مفاصلكم أعقاب البنادق . فتكتشفون أن الدوران هو في أدمغتكم فقط وفي الكتب والاذاعات والخطب والاغاني الحماسية . أما بعد فلا شيء سوى الثبات والنهر الواحد تنزله للمرة المائة والالف والمليون . أما بعد أما بعد أما بعد ... »

— 15 —

تركنا الدركيين ولم نعد نسمع وسط الطريق الخالية سوى أزيز محرك السيارة واحتكاك عجلاتها بالارض . صار الجو ثقيلا فظننت أنه كذلك في السيارة فحسب ، لكن بدت من بعيد ، وعلى رؤوس الاشجار ، سحب سوداء ضخمة تملأ رحابة السماء . جمع السائق فجأة قبضة يمناه وضرب بها المقود ثم هتف : لم يبق لهم سوى الاشجار والطريق المعبدة . لم ينطق أحد . الفتاة عادت الى اغفاءتها والانيق يهمس في أذن النصراني بشيء ما والاعرابي يبدو كمن نظر شاشة عرض لاول مرة . بينما أمسك الشاب كتابا وتشاغل بقراءته. ضرب السائق المقود مرة ثانية وقال : دركي آخر وتصبح رحلتكم هذه أجرا أقوم به لوجه الله بلا جزاء ولا شكور . قطع الانيق كلامه وضحك ثم قال في لهجة أرادها أن تكون مرحة : الاجر خير لك من كل مال الدنيا .. الا ان السائق بدل أن يضحك خفف رجله عن الدواسة وصرخ : وأولئك الاولاد في المنزل ، وأمهم ، وصاحب السيارة : افتح أفواههم وضع فيها أجرا من عند الله ، سيسكتهم من الجوع حتما . استيقظت الفتاة على صوت الصرخة ونظر

النصراني في دهشة الى ما يجري بجواره واضطرب الانيق : كلا ، ليس ذلك ما قصدته أبدا ، فقط أردت أن أقول أن الاجر دائم اما المال فانك لا تفطن حتى تجده قد زال من يدك وذهب . طرف الاعرابي بجفنيه وتوقف الشاب عن القراءة وواصل السائق صراخه : آسيدي .. اعطني نقودا ، ترن أو تخشخش، نقودا فحسب ، زائلة في ساعتها ، وخذ كل ما جمعته من أجر ، من مولدي الى يوم القيامة ، قال الانيق : كلا ، لا ينبغي أن تكفر بالله ، فالانسان ليس مجرد آلة بل هو روح أصلا . ضغط السائق بقدمه على الدواسة فانتفضت السيارة وزادت من سرعتها ثم قال مخففا من حدة كلامه : أنا لم أعد أفهم من أين تأتون بكل تلك السيارات والبذل والمباني ، أنا لا أجد ما أضعه في بطني وتحت لساني الا بمشقة وأنتم تظهرون كل يوم في سيارة جديدة . أنت نفسك صارحني، أعرف أنكم تقولون شيئا وتفعلون شيئا آخر، ومع ذلك صارحني : هل تستطيع أن تعيش يوما بدون نقود ؟ تبجل لون الانيق بغتة واكفهرت سحنته ، ثم هتف بالسائق : آسيدي ، هذه مسألة لا تهمني ولا تهمك ، أنا أعطيتك أجرتك لكي تحملني الى العاصمة ، فاحملني الى العاصمة ودعني بنظراته الحائرة ثم أعادها نحو السائق الذي انفجر في شؤوني الخاصة . بلع الاعرابي ريقه بصوت مسموع ودار الينا النصراني في ضحكة مدوية وهتف: أسمعتم ما قال ؟ العاصمة ؟ كلكم بله ومغفلون وسذج. العاصمة . وتصدقون أن ثمة شيء اسمه العاصمة .

— 16 —

« وقال وهتف وصرخ جلول : ليس ثمة عاصمة ، ليس ثمة سوى العواصف والرمال الصفراء والقبور والجثث . ليس ثمة سوى جيوش الموظفين الذين يقضون حياتهم لاهثين بين المكاتب والحانات والشقق السيئة التأثيث التفوح منها دائما رائحة الجوارب وعجائز العاهرات والاواني المتروكة دون غسيل وبين حلم الزوجة البيضاء اللحم الزرقاء العين والسيارة الفخمة والشرفة التي تطل على الشارع والمدخل المفتوح على البحر ، ليس سوى الطلبة يجربون اشتعال الحماس المتقد في الصدر وكيف تصبح كل العواطف اخشابا ورمادا ... ليس ثمة شيء ليس ثمة شيء على وجه الاطلاق ... »

نزات السحب وتحركت الريح فقال السائق وهو يقهقه بصوت جنائزي : هي ذي العاصمة . فتحت عيني الى أقصاها وأغمضتهما ثم فتحتهما ولم المح سوى العاصفة السوداء وهي تقترب ، تمايل الركاب وقال الانيق : كلا ... ثم هتف باضطراب : انها خدعة .. وصرخ بالسائق : هذا فخ .. أوقفنا هنا ،، ليست هذه هي العاصمة .. قال السائق : حسنا ، وضغط على الدواسة الى أقصاها فارتفع صوت المحرك وسط أزيز الريح إلا أن سرعة السيارة بدل أن تتضاعف أخذت تتناقص . قالت الفتاة : ماذا حدث ؟ وقال الشاب والاعرابي : ماذا حدث ؟ وقال النصراني بلغته الفارقة : ماذا حدث ؟ . قلت لنفسي : لم يحدث شيء . كان داخلي أبيض رطبا مثل الشرانق التي لم تفقس بيوضها بعد . فقلت : لم يحدث شيء ، وانما أنت الآن على اعتاب الصرخة الكبرى ، أنت على اعتاب الصرخة فافتح مسامك وانشحذ كالنصل لاقتناص كل مسا تراه ، اللحظة الفريدة التي تسمع عنها طول عمرك وتقرأ في الكتب ، والهدوء الغادر الذي تطمئن اليه وتسلم الاكتاف وبواطن الركب فاذا به ، في لحظة ، ينفتح كالاجة ويقلبك ثم يرميك ، والعين العين العين . قال السائق : هي العاصفة تتجه الآن نحونا ، وسنقف سواء أ أردنا أم لم نرد . وتناقصت سرعة السيارة وتناقصت ثم توقفت تماما . لم يفهم النصراني شيئا مما يدور حوله فقال ثانية : ماذا حدث ؟ ولم يجبه أحد الا أن ذرات رمل رقيقة حادة أخذت تتسرب الى داخل السيارة من فرج النوافذ والابواب وبدأت الغابة والطريق تختفيان من أمام أعيننا . قال الانيق مذعورا : هذه عاصفة رملية . قال السائق بهدوء : نعم ، ورملها أصفر دقيق مثل حبات الكسكس . هتف الانيق : ولكننا الآن قرب البحر والجبال والغابات . ضحك السائق وحرك رأسه من اليمين الى الشمال ومن الشمال الى اليمين وقال : كل ذلك في الكتب ، أما الواقع فالصحراء على رمية حجر من القطب ، وأما القطب فعلى رمية حجر من الصحراء ، وأما ... وشرعت السيارة تنضغ الى الخلف . فصرخت الفتاة صرخة حادة ثقبت أذني اليمنى ، وهتف الانيق بالسائق : الفرامل ، الفرامل اليدوية ، فقهقه السائق وقال : وفرامل الرجل أيضا ، اليس كذلك ؟ هذه عاصفة يا ولدي وليست قطعة لبان . كان كل ما بداخلي ساكنا ، فقلت انني الآن أتفرج وحسب وان كل ما يحدث الآن هو لشخص آخر غيري ، يتقمصني في لحظات الفرح وأتنصل منه في لحظات الحزن والتعاسة . أما

الارض فليست سوى كوكب بئيس مسمر في مكانه ، ينتظر وينتظر حتى تجرفه ثلوج القطب أو رمال الصحراء ، ونحن نتكلم عن أشياء تتحرك وعن أرض تدور خوفا من أن نصمت فنكتشف الخواء الساكن فينا بين الاضلع وأعشاش العناكب . صرخت الفتاة ثانية واتكأ علي الاعرابي والشاب فادخلا جسمي في جسم الفتاة . لم أعد أبصر شيئا على الاطلاق ، والسيارة أصبحت الآن جزءا من العاصفة . أرخى السائق المقود وهو لا يفتأ يقهقه بصوت شادخ كالحجر ، دارت السيارة وأصبحت أبوابها اليمنى بمواجهة العاصفة . صرخت الفتاة ثالثة وصرخ الانيق والنصراني والشاب وقال الاعرابي : آه . اتكأت السيارة على شمالها فسقطت علي الفتاة ودخل جسدانا في جسدي الاعرابي والشاب . ودارت السيارة حول نفسها ، فدرنا حول بعضنا داخلها وتبادلنا الضغط ، وصرخت الفتاة ، ودارت السيارة مرة ومرة ، ثم اصطدمت بشيء صلب فارتججنا وانفتحت الابواب فانقذفنا الى الخارج ... دخلت الرمال في عيني وأنفي وأذني ومسامي فأغمضت جفني وتركتني اتدحرج في الهواء مع الريح . ارتطم بي جسد ، ثم جزء من جسد ، وسمعت صرخات تنكتم ، وقهقهة ، ثم لم أعد أميز الصراخ عن القهقهة وعن أزيز الريح . ارتطم جسدي بالارض وطار ثم ارتطم وطار ثم ارتطم وارتطم بالارض . مددت يدي فلم أجد ما أتشبث به ، فوضعتها على جيبي الداخلي فوجدت الرسالة به لا تزال دما تركتها ، ومع ذلك أحسستني ابتعد عن نفسي . قلت : أنا لست متفرجا ولا مهرجا وانما أنا ذرة من ذرات العاصفة وقد آن أوان الصرخة وفتحت فمي لاصرخ الا أن الرمال داهمتني وملأت فمي وأنفي وأذني وعروقي وكل المسام ،

ـ جلول الجبلالي يقول كلمته الاخيرة :

« وقال جلول : كانت هناك عاصمة ، وثمة كانت أرض تدور ، غير أن الطيور ارتحلت جنوبا والجبال تقهقرت الى البحار ، وغطت رمال العواصف الوادي الذي هتفت صخوره قائلة ان الشمس ستهوى الآن علينا مباشرة وانا سنحمى ونحمر فنصبح وكرا للأنفس تأتيه بحثا عن الظل فتتصيدها العقارب والحيات » .

الدار البيضاء
أكتوبر 1978